ولما اجتمع مجمع ترقية العلوم البريطاني في الحادي عشر من هذا الشهر (سبتمبر) كان اول ما فاه به رئيسهُ السر دغلس غلتون انهُ ذكر فقدهم للاستاذ هكسلي وخسارتهم ٱلَّتي لا تعوَّض قال

" ارى من الواجب عليَّ ان اشير الى الخسارة العظيمة ٱلَّتي خسرها العلم حديثاً بموت الاستاذ هكسلي . ولا حاجة بي ان اشير الى مناقبهِ الكثيرة لا سيما وان كثيرين من الحضور يعرفونهُ شخصيًّا . واما ما لهُ من الايادي البيضاء على مجمعنا بما فعلهُ في ترقية العلوم فما لا يصحُّ السكوت عنهُ . فقد كان من اقدر الناس على نزع الحواجز ٱلَّتي اقامها اهل التقليد في سبيل العلم في حداثة هذا المجمع وكسر القيود ٱلَّتي قيَّدت العقول بها في بعض فروع العلم . وقد امتاز بذكاء العقل ومضاء العزيمة وبلاغة الانشاء كما امتاز بمعارفهِ البيولوجيَّة . وبلاغتهُ سهَّلت عليهِ ايضاح اغمض المسائل العلميَّة . وكان في الخطابة فصيحاً منسجم العبارة قوي الحجة يكثر من الامثال والنكت ٱلَّتي تزيد معانيهُ ايضاحاً . وبمضاء عزيمتهِ وبلاغة حجتهِ انتصر مذهب التشوء وحقَّ لنا ان نبحث في مسائل الدين والعلم بلا خوف ولا تزلّف "

هذا ومن يطالع ما نشرناهُ في فصول سابقة موضوعها جهاد العلماء يعلم ان الحريَّة العلميَّة ٱلَّتي يجاهر بها علماء الطبيعة وعلماء الدين الان في مدارس اوربا ومجامعها وكنائسها لم تكن شيئاً مذكورًا منذ خمسين او ستين عاماً وان الفضل فيها كلها لعلماء هذا العصر مثل هكسلي وتندل وسبنسر وريتان ولنرمان ونحوهم من العلماء الاعلام الذين كسروا قيود التقاليد القديمة واخرجوا العقل من ربقة الجهل الى نور العلم والحريَّة

ولا ننكر ان بعض هؤلاء العلماء غالوا في اطلاق الحريَّة وتوغلوا في الظنون والاوهام لانهم لم يخرجوا عن كونهم بشرًا عرضة للخطإ لكنَّ اطلاق الحريَّة للعقل خير من تقييدهِ على كل حال واذا تناضلت العقول وتساجلت فقلما تتَّفق على ضلال

غرض العلماء الاعظم

اذا كان علمُ المرء ليس بنافعٍ ولا دافع فالخسرُ للعلماء

جرت مناظرة في هذه الاثناء بين عالم اميركي اسمهُ كلارك ومحرِّر جريدة العلم العام الاميركيَّة في غرض العلماء جرَّتها اليها خطبة اللورد سلسبري في مجامع العلم ٱلَّتي

نشرناها في الصيف الماضي . فان اللورد سلسبري ابان قصور العلم عن ادراك كثير من الحقائق واشار الى علامات القصد الالهي في الموجودات الارضيَّة ولام العلماء الذين ابطلوا الالتفات اليها. فانتقد عليهِ محرِّر الجريدة الاميركيَّة انتقادًا عنيفًا وقال ان خطبتهُ تستدعي العود الى المسلَّمات القديمة والاعتماد عليها وان القول بالقصد الالهي اي بان الموجودات وُجِدَت كما هي بترتيب الهي لا محيد عنهُ يُبطِل البحث العلميَّ ولا يلجأ اليهِ الاَّ كل من يحجم عن اجهاد عقلهِ في كشف الحقائق . فاذا شاع رأي اللورد سلسبري واعتمد العلماء عليهِ ابطلوا البحث العلمي واكتفوا بالمسلَّمات

فردَّ عليهِ العالم كلارك ردًّا مسهبًا قسم فيهِ البحث العلمي الى ثلاثة اقسام بحث عن الماهيَّة وبحث عن الكيفيَّة وبحث عن الغاية او القصد. فالبحث عن اجناس الحيوان والنبات وانواعها وفصائلها ومقوِّمات كل جنس ونوع وفصل منها هو البحث عن الماهية . والبحث عن كيفيَّة وجود هذهِ الاجناس والانواع وتولُّد بعضها من بعض هو البحث عن الكيفيَّة . والبحث عن الاسباب في تولد هذهِ الاجناس والانواع وتبايناتها المختلفة هو البحث عن الغاية او القصد. وقال ان العلماء اهتموا اولاً بالبحث عن ماهيَّة الموجودات كأنهم وُصَّاف يذكرون اسماءها واوصافها المقومة لماهياتها ولا يلتفتون الى كيفيَّة وجودها لانهم كانوا يكتفون بالاعتقاد الشائع في ايامهم وهو ان الله اوجدها كذلك . وظلوا على هذا النمط في اعتبار الموجودات الحيَّة يبحثون عن الماهيَّة ويتركون الكيفيَّة الى ان قام الشهير دارون وجمع الماهيات الَّتي ذكرها غيرهُ من العلماء وقابل بعضها ببعض ورأى ما بينها من العلاقات فقادهُ ذلك الى البحث عن كيفيَّة وجودها او تولدها اي عن كيف وُجِدَت اجناس النبات والحيوان وانواعها وتبايناتها المختلفة فوجد انها تولدت بعضها من بعض باسباب طبيعيَّة كالانتخاب الطبيعي والجنسي وذكر كثيرًا من الادلَّة الَّتي تؤيد ذلك . وكان علماء الطبيعيَّات والكيمياء والفلك قد سبقوهُ الى البحث عن كيفيَّة وجود المواد الجماديَّة كالمطر والثلج والاملاح والحوامض والشموس والاقمار وعرفوا كثيرًا من نواميسها . فالبحث عن كيفيَّة الموجودات الحيَّة هو الذي احلَّ دارون هذا المحل الرفيع بين علماء الارض وسيبقى بدرًا منيرًا في غرة القرن التاسع عشر

والاسباب الَّتي اكتشفها دارون لتولُّد انواع الحيوان والنبات ليست الاسباب الوحيدة لتولدها ولكن بحث دارون اي البحث عن كيفيَّة هذا التولد هو المذهب العلمي الَّذي وضع دارون اساسهُ واقام بناءهُ . وقد مرَّ علينا خمس وثلاثون سنة والبحث عن

الكيفيات هو الغرض الاول من مباحث علم الموجودات الحيَّة (البيولوجيا) بل من مباحث كل العلوم الطبيعيَّة

وجملة القول ان العلماء كانوا يبحثون اولاً عن ماهيات الموجودات الحيَّة اي عن الصفات الطبيعيَّة المقومة لها فلما عرفت ماهياتها تمهد السبيل للبحث عن كيفيات وجودها فقام داروِن ورأى عدم كفاءة قول القائلين ان الله خلق كل نوع من الانواع على حدته في الحالة الَّتي نراهُ فيها الآن لانهُ رأى بينها قرابة ومشابهة تشعر باشتقاقها بعضها من بعض وتغيرها لاسباب طبيعيَّة لا سيما وان هذا التغير جارٍ فيها الآن فبحث عن كيفيَّة تولدها وتغيرها واقنع علماء الارض اجمع حتى خصومهُ انفسهم ان البحث عن الكيفيات هو البحث المطلوب. ومن ثم صارت مباحث علماء الطبيعة محصورة في كيفيَّة تولد الموجودات وانقلبت وجهة البحث من مباحث أُوِن واغاسز وليَل الذين كانوا يحسبون انفسهم باحثين عن اعمال الخالق القدير الذي هو ابو الكل وصانع الكل الى مباحث هكل وهكسلي وسبنسر الذين ليسوا من اهل الدين. فلما عثروا على الاسباب الطبيعيَّة لتولد الموجودات بعضها من بعض وقفوا عند هذا الحد كأن ليس للعلم غاية أُخرى وراءهُ . وعندي ان وراء الكيفيَّة امرًا آخر اسمى منها وهو الغاية الَّتي لاجلها وُجدت الاجناس والانواع او تولَّد بعضها من بعض

ولستُ اول من قال هذا القول او نبَّه الاذهان اليهِ ولكنني ارى ان جمهور العلماء قد اغفل البحث عن الغاية وهو يبحث عن الكيفيَّة . وقد يُعترض علينا ان معرفة الغايات ليست ميسورة لنا لا سيما وان معارف الانسان محدودة . وبمثل ذلك اعترض جمهور العلماء على داروِن وانصارهِ لما اخذوا يبحثون عن الكيفيَّات مدَّعين ان معرفتها فوق طوق الانسان لكن داروِن لم يكفَّ عن بحثهِ بسبب اعتراضهم. ومذهبهُ الذي كان ظنًّا في اول الامر كاد يصير الآن حقيقة مقرَّرة مع ما فيهِ من الغوامض . فمن يحكم ان الغاية الَّتي تحوَّلت لاجلها الاجناس والانواع لا يمكن معرفتها او لا يرجح ان بعض ابنائنا يكتشف تلك الغاية او الغايات

فاذا ثبت ان معرفة ذلك من الممكنات حق لنا ان نبحث في ما عُرِف حتى الآن من اسرار الطبيعة لعلنا نجد فيهِ مرشدًا يرشدنا الى الغاية الَّتي وجدت لاجلها الموجودات الحيَّة . فان الوقوف عند معرفة الكيفيَّة يكرههُ العاقل كما كره الوقوف عند الماهيَّة

وقد علمنا الآن كيف تولَّد الطاووس وطير الجنَّة بما فيهما من الالوان البديعة

ولكننا لم نعلم لماذا تولدت هذه الالوان فيهما او ما هي الغاية او ما هو القصد منها لانهما لو كانا غير مزوقين لما كان ذلك ضائرًا بها بل ربما كان اصلح لها فما القصد من تزويقهما . ومثل ذلك ارج الازهار فان استطيابنا لهُ لا ينفعها ولا يضرها بل هي تكتفي بالرائحة المجردة لاجتذاب الحشرات اليها لتلقيحها بل تكتفي بالرائحة الخبيثة فما القصد من طيب رائحتها. وهل تلونت الاطيار وطابت رائحة الازهار بالصدفة العمياء. وهب ان اختلاف بعضها عن بعض حدث فيها صدفة واتفاقًا فكيف ثبت فيها هذا الاختلاف مع ان الموجودات الحيَّة تميل كلها الى البقاء على حالها والجري على سنن واحد . والاولى بها ان تتوارث الصفات المشتركة لا الصفات الَّتي شذَّت عن غيرها. ويظهر من حساب المرجحات ان توارث الصفات الشاذَّة حتى تدوم وتثبت يكاد يكون ضربًا من المحال ولذلك حقَّ لنا ان نبحث عن الغاية الَّتي لاجلها تولدت الموجودات وهذا البحث اهم من البحث عن الكيفيَّة . الَّا اننا لا ننتظر ان نعرف لماذا تولدت الموجودات الَّا بعد ان نعرف كيف تولدت كما اننا لم نعرف كيف تولدت الَّا بعد ان عرفنا ماهيتها . فالبحث عن الماهيَّة مقدَّم على البحث عن الكيفيَّة وهذا مقدَّم على البحث عن الغاية او القصد

ثم اننا نعلم بالاختبار ان المقاصد لا تنسب الَّا الى ذوي العقول فاذا كانت الموجودات لتغير لقصد ما فمُغيِّرها كائن عاقل واذا كانت هذه الموجودات غير محدودة بالنسبة الينا فمُغيرها غير محدود بالنسبة الينا ولذلك حقَّ لنا ان نعتقد بوجود كائن عاقل غير محدود وهو الذي نسميهِ الله . فالقول الذي رفضهُ العلماء حينما اخذوا يبحثون عن كيفيَّة تولد الانواع وهو ان لله مقصدًا في تكوين الموجودات على هذه الصورة لا يصلح ان يكون جوابًا لمن يسأل عن كيفية تكوُّنها ولكنهُ يصلح ان يكون جوابًا لمن يسأل عن القصد او الغاية من تكوُّنها وتولدها

ومعلوم ان المصنوعات تدل على صفة الصانع فاذا درسنا الموجودات الطبيعيَّة وعرفنا ماهياتها وكيفياتها تأهلنا لمعرفة القصد منها وامكننا ان ندرك صفات الله. هذا هو الغرض الجليل من المباحث العلميَّة وبدونهِ يبقى العلم عقيمًا ناقصًا

فردَّ عليهِ محرِّر الجريدة ردًّا موجزًا وافقهُ فيهِ على كثير مما قالهُ لانهُ منطبق على مذهب علماء البيولوجيا الى ان وصل الى قولهِ ان غاية العلم القصوى يجب ان تكون البحث عن مقاصد الله في تولد انواع الحيوان والنبات وان معرفة هذهِ المقاصد ممكنة كما امكنت معرفة الماهيات والكيفيات فقال

" هذا ومما يؤسف عليهِ ان رجلاً لهُ المام بالعلوم الطبيعيَّة واتصال بدار من دور العلم اوهو عازم على الاتصال بها يستدلُّ هذا الاستدلال العقيم فانهُ استدلَّ على انهُ يمكننا ان نعرف مقاصد الله لاننا امكننا ان نعرف كيفيَّة تولد الموجودات الحيَّة . مع ان الامر الثاني متعلق باسباب طبيعيَّة والامر الاول لا علاقة لهُ بالاسباب الطبيعيَّة بل بمشيئة الله فمتى ياترى تسرع مدارسنا في تعليم طلبتها قواعد المنطق . وماذا يعني الكاتب بالمقاصد الالهية . هل يستطيع احد ان يعرف ما في عقل الله ويفهم افكارهُ ومقاصدهُ . ليجهد عقلهُ ما شاء فهل يقدر ان يدلنا على السبيل الذي نبلغ بهِ ذلك . وهل استطاع احد من الناس ان يعرف اقل شيء من هذه المقاصد او من الطريق الموصلة الى معرفتها . ولقد خاض اهل الاديان في هذهِ المسألة من قديم الزمان الى الآن ولم يهتدوا الى وجهها على الاطلاق ولا نعلم الآن منها اكثر مما كان يعلم اسلافنا منذ الوف من السنين ولكننا نفرق عن اسلافنا باننا عرفنا جهلنا وعرفنا ان لا منجاة لنا منهُ فرضينا ولم نفتر وامم فادَّعوا علم ما لا يعلمون . وقد وجدنا فوق ذلك ان معرفة الكيفيَّة تغني عن معرفة الغاية بل تجعل معرفة الغاية فضلةً لا فائدة منها لنا . فاذا عرفنا خواص الاكسجين والهيدروجين والنيتروجين مثلاً لم نعد نرى بنا من حاجة الى معرفة الغاية المقصودة من وجود هذهِ الخواص فيها واذا عرفنا خواص المثل والسطح المائل لم نشعر ان معرفة الغايات التي وجدت لها هذهِ الخواص فيها ترقينا في سلَّم الكائنات " . وبعد ان عدَّد الامثلة على ذلك قال ان غاية العلم العظمى يجب ان تكون اصلاح شؤون الانسان وكأنَّ لسان حالهِ يقول

اذا كان علمُ المرء ليس بنافعٍ ولا دافع فالخسرُ للعلماء

هذا واننا نوافق محرِّر جريدة العلم العام على ما قالهُ من ان اصلاح شؤون الناس من اعظم غايات العلم ان لم يكن الغاية العظمى منهُ ولكننا لا نوافقهُ على ان ادراك المقاصد امر مستحيل او خالٍ من الفائدة لان عقولنا توجب وجود المقاصد ولا تنفي امكان معرفتها بدليل سعي الناس وراءها في العصور الغابرة فضلاً عن ان المعلول قد يدلُّ على علتهِ وغايتهِ كما ان البيت يدل على ان بانياً بناهُ وعلى انهُ بني لاجل السكن . وما ادرانا ان معرفة المقاصد خالية من النفع . ثم ان العلم مطلوب لذاتهِ نتج عنهُ نفع في الحال او لم ينتج فلا عجب اذا وجَّه العلماء ماضي العزيمة الى البحث والتنقيب عن المقاصد الالهية وربما كانت معرفتها ايسر من معرفة الكيفيات ولو لم نهتدِ الى طريقها حتى الآن